الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله وصراعه مع وزرائه وأثر ذلك على الأوضاع السياسة والمذهبية فى مصر (٥٢٤ - ٥٤٤هـ / ١١٣٠ - ١١٤٩م)*

*دكتور/عفيفى محمود إبراهيم
أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد
بكلية آداب بينها

أولاً: أوضاع الخلافة الفاطمية قبيل تولية الحافظ:

عندما ولى الآمر بأحكام الله الخلافة الفاطمية فى نهاية القرن الخامس الهجرى (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ / ١١٠١ - ١١٣٠م) كان الوزراء والقواد قد تزايد نفوذهم وتعاظم بعد أن استبدوا بالخلفاء، وأصبحت مقاليد الأمور السياسية والمذهبية فى أيديهم، منذ أن ظهر أمير الجيوش بدر الجمالى[1] على مسرح الأحداث السياسية فى مصر وتولى منصب الوزارة للخليفة المستنصر لدين الله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ/ ١٠٣٥ - ١٠٩٤م). ثم خلفه ابنه الأفضل الذى قطع شوطاً بعيداً فى الاستئثار بالسلطة عندما عمل على إقصاء ولى عهد المستنصر وأكبر أبنائه نزار عن العرش بعد وفاته سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م وبايع أخاه الأصغر أبا القاسم أحمد الذى لقب بالمستعلى (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ /

(١) بدر الجمالى: وهو أرمنى الجنسية، اشتراه جمال الدولة بن عمار، وتربى عنده، وكانت قدراته الفائقة سبباً فى رفع شأنه وتقلبه فى أرفع المناصب، كوالى لدمشق ثم لعكا، ويصفه ابن خلكان بأنه: (كان من الرجال المعدودين من ذوى الآراء والشهامة وقوة العزم) ولهذه الخصال استدعاه الخليفة المستنصر للقدوم إلى مصر بعد أختل الأمن والنظام فى ربوعها (انظر: ابن الأثير: الكامل جـ٨ ص ١١٨، ١٧٢ / ابن ميسر: أخبار مصر ص ٣٩، ٤٠، ٥٣ / ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص ٤٤٨، ٤٤٩ / النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٨ ص ٢٣٤ - ٢٤٠ / ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٦٤/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٣٢٩.

١٠٩٤ - ١١٠١م) وقد أدى تدخل الأفضل هذا ومخالفته لقواعد المذهب الاسماعيلى الخاصة باختيار الأئمة إلى قيام نزاع مسلح بين الأخوين[١] انضم إليه الكثيرون، وقد أسفر هذا النزاع عن مقتل نزار وهزيمة أصحابه وانقسام الدعوة الفاطمية تبعا لذلك إلى فرقتين متعاديتين هما النزارية والمستعلية[٢].

فلما توفى المستعلى بالله سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠١م بايع الأفضل ابنه على

---

(١) لما رأى نزار أن الخلافة أفلتت من يده، سار إلى الاسكندرية، فتلقاه وإليها ناصر الدين أفتكين، وبايعه هو وأهل الاسكندرية بالخلافة ولقبوه (المصطفى لدين الله) فلما علم الأفضل بذلك خرج لقتاله على رأس جيش كثيف، فدارت الدائرة على الأفضل أولا وعاد إلى القاهرة، ثم أخذ يعد العدة لقتال نزار، ونجح فى استمالة بعض اتباع نزار من العربان، ولما تم له ذلك خرج إليه ثانية على رأس جيش كبير وحاصره حصاراً شديداً، فاضطر نزار وافتكين إلى طلب الأمان، فأمنهما الأفضل، ثم انتقم من نزار بأن وضعه بين حائطين وبنى عليه، فمات، كما قتل أفتكين أيضا.
(انظر: ابن الأثير: الكامل جـ٨ ص ١٧٢، ١٧٣/ ابن ميسر: أخبار مصر ص ٥٩ - ٦٣/ النويرى : نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٢٤٣ - ٢٤٨/ ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٦٦ /المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٣ - ١٤ / ساويرس: تاريخ بطاركة الكنيسة. المجلد الثانى جـ٣ ص ٢٤٤ - ٢٤٦/ حسن ابراهيم: الدولة الفاطمية ص ١٧٢/ العبادى: التاريخ العباسى ص ٣٠٦).

(٢) وكان وراء هذا الانقسام الحسن بن الصباح، الذى كان كارهاً لبدر الجمالى وأسرته، لذلك قاد حركة المقاومة ضد المستعلى وأعلن بين انصاره أن المستنصر قد نص على إمامة ابنه نزار باعتباره أكبر أبنائه وأحق الناس بالإمامة من بعده وأن المستعلى قد اغتصب الخلافة والإمامة من نزار. ومن ثم أخذ يدعوا إلي الإمام المستور، وعرف هو وأتباعه بالنزارية، كما عرفوا بالحشاشين (أو الحشيشية) وهو الاسم الذى اشتهروا به، كما كانوا يعرفون أيضاً بالباطنية (المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٣٢٣. جـ٣ ص ٢٧/ حسن ابراهيم تاريخ الاسلام جـ٤ ص ٢٦٩، ٢٧٠ / دائرة المعارف الإسلامية. مادة الحسن بن الصباح).

ولقبه الآمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ/ ١١٠١ - ١١٣٠م) وكان عمره آنذاك خمس سنين[١]. ومن ثم تصاعد نفوذ الأفضل فى وجود هذا الطفل الصغير، وأصبح مطلق التصرف فى شئون البلاد[٢]، فأخذ يتجاهل رسوم الفاطميين الدينية، ويميل ميل السنين، فألغى الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم، ومولد فاطمة وعلى رضى الله عنهما، ومولد الخليفة القائم بالأمر[٣].

ومما لاشك فيه، كان عمله هذا كافيا لإضعاف نفوذ الفاطميين والعمل على تقويض دعائم حكمهم لأنهم كانوا حريصين على الاحتفال بهذه الأعياد لتأييد انتسابهم إلى على بن أبى طالب وزوجته فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو ماكان موضع شك رعاياهم طوال فترة حكمهم[٤].

لما ضاق الآمر بتحكم الأفضل فى أمور دولته أوْ عَزَ إلى المأمون بن البطائحى[٥]، وهو أحد خواص الوزير، بتدبير مؤامرة لقتله، فتم الأمر على مادبر، وقتل الأفضل[٦] وخلفه المأمون فى الوزارة سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١م

(١) ابن ميسر: أخبار مصر ص ٧٠/ ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ص ١٨٠/ النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٨ ص ٢٤٣، ٢٤٤/ ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٦٨/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ٣١/ ساويرس: تاريخ بطاركة الكنيسة. المجلد الثانى جـ٣ ٢٤٦، ٢٤٧.

(٢) المقريزى اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ٣٧.

(٣) انظر ماذكره المقريزى عن الأعياد والمواسم التى كانت تحتفل بها الدولة الفاطمية (الخطط جـ١ ص ٤٩٠).

(٤) حسن ابراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧٣/ سرور: الدولة الفاطمية ص ١١٨، ١١٩.

(٥) المأمون بن البطائحى: هو أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدين أبى شجاع فاتك المعروف بالمأمون بن البطائحى. ولد سنة ٤٧٨ هـ وقيل سنة ٤٨٩ هـ وقتله الآمر سنة ٥٢٢ بعد اعتقاله (ابن ميسر: أخبار مصر ص ٨٧ / المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ٣٨، ١١٠، ١١٥).

(٦) تختلف المصادر فى الجهة التى كانت وراء تدبير المؤمراة التى قتل فيها الأفضل، فالبعض مثل ابن ميسر يذكر: بأن قتلته كانوا من الباطنية، فى حين يرى ابن القلانسى: أن مقتل الوزير كان تدبيراً من الخليفة الآمر وأنصاره (أخبار مصر ص ٨٠، ٨١/ ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٣، ٢٠٤).

فتصدى لمثيرى الشغب والفتن ونجح فى حماية البلاد من الأخطار[١]، غير أن الآمر قام بالقاء القبض عليه فى رمضان سنة ٥١٩ هـ/ اكتوبر سنة ١١٢٥م[٢] وإنفرد بحكم البلاد (ولم يستوزر بعد المأمون وزير سيف، بل استبد بأمره وباشرها بنفسه)[٣].

غير أن الآمر لم يتمتع طويلا بهذا الحكم المطلق، فقد تمكن فريق من النزارية من قتله فى شهر ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ/ اكتوبر سنة ١١٣٠م بعد أن حكم مايقرب من ثلاثين عاما[٤]، ولتبدأ بمقتله فترة جديدة وحاسمة في تاريخ هذه الدولة التى شارفت على السقوط والزوال.

---

(١) ابن ميسر: أخبار مصر ص ٨٧ - ١٠٣/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ٨٤ - ١٠٩.

(٢) اختلف المؤرخون فى الأسباب التى أدت إلى القبض على المأمون، فينكر البعض: أنه بعث إلى الأمير جعفر أخى الآمر يغريه بقتل أخيه ليقيمه مكانه فى الخلافة، بينما يذكر البعض الآخر أنه ادعى أنه من ولد نزار، وأنه أرسل إلى اليمن يدعو الناس إلى بيعته (ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٠٥، ١٠٦ / المقريزى اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١١٠ / يوساب: تاريخ الآبار البطاركة ص ١٤٣.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١١١.

وكان يعاون الآمر في تلك الفترة رجلان هما (صاحب ديوان الاستخراج بما يجب من زكاة ومكس إحداهما مسلم يقال له جعفر بن عبد المنعم بن أبى قيراط والآخر سامرى يقال له أبو يعقوب ابراهيم) (المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١١٥/ انظر: ابن خلدون جـ٤ ص ٧١.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ٨ ص ٣٣١/ ابن ميسر: أخبار مصر ص ١١١ / ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٥ ص ٣٠١، ٣٠٢/ ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٧١/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٣٠، ١٣١.

ثانيا: الخليفة الحافظ وصراعه مع وزرائه وأثر ذلك على الأوضاع السياسية والمذهبية:

لما قتل الخليفة الآمر بأحكام الله لم يكن له وريث يخلفه، وإنما ترك - كما تذكر المصادر - إحدى سرارية حاملاً فانتهز بعض رجال دولته هذه الفرصة وقاموا بالقبض على أمام السلطة فى البلاد، وكان على رأس هؤلاء هزار الملوك جوامرد والعادل برغش، ووقع اختيارهم على ابن عم الخليفة المقتول الأمير أبى ميمون عبد المجيد، وكان عمره آنذاك ثمانية وخمسين عاما، ليكون كفيلاً للطفل المنتظر، ولقب بالحافظ لدين الله. بينما تولى هزار الملوك الوزارة.

غير أن الأمر لم يستقم لكل من الحافظ ووزيره هزار الملوك، فقد ثار عليهما الجند، فى نفس يوم التولية، واجتمعوا فى خمسة آلاف فارس وراجل فى منطقة بين القصرين، بقيادة رضوان بن وخشى، أحد أمراء الجند المميزين فى الدولة[٥]، ويبدو أن العادل برغشى كان مشاركاً معهم أيضا فى هذه

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٣ ص ٢٣٦، ٢٣٧/ ابن خلدون: العبر جـ٤ ص٧٢/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٣٧/ أوب المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٢٣٧.

(٢) أبو ميمون عبد المجيد وهو أبو ميمون عبد المجيد بن أبى القاسم محمد بن المستنصر، ولد بعسقلان فى المحرم سنة سبع وقيل سنة ثمان، وستين وأربعمائة، وذلك عندما أخرج المستنصر ابنه أبا القاسم مع بقية أولاده فى أيام الشدة، لذلك كان يقال له الأمير عبد المجيد العسقلانى (ابن الأثير: الكامل حـ٨ ص ٣٣٢/ ابن خلكان: وفيان الأعيان جـ٣ ص ٢٣٦/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٣٧/ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٢٣٧/ السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ٨٣٤).

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ٨ ص ٣٣٢/ ابن ميسر: أخبار مصر ص ١١٣/ ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٣ ص٢٣٧/ ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٧١/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٣٧.

(٤) ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٧٢/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٣٧.

(٥) ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٧٢/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٣٧، ١٣٨.

المؤامرة بعد أن (شق عليه تقدم هزار الملوك وتقلده الوزارة)[١] وكانت مطالب الجند تنحصر فى خلع هزار الملوك وتولية أبى على أحمد بن الأفضل، الملقب بكتيفات، منصب الوزارة، فلما أشتد الأمر على الحافظ رضخ لمطالبهم، فقتل هزار الملوك، وألقى برأسه إليهم ليهدؤا، واستدعى ابن الأفضل وقلده الوزارة[٢]. وهكذا أثبت الجند أنهم مايزالون يدينون بالولاء لأسرة بدر الجمالى لما قدمته من خدمات جليلة للدولة الفاطمية طوال فترة خدمتهم لها.

ويبدو أن أبا على أحمد كان ناقما على الخلافة الفاطمية، بسبب قتل الخليفة الآمر لأبيه - ومصادرة أمواله. فقد بادر بعد توليه الوزارة إلى الاستئثار بالسلطة والقبض على عبد المجيد وحبسه، ومنعه من تصريف شئون الحكم[٣]، ثم أمر الخطباء بإسقاط اسمه من الخطبة[٤]، واستولى على مافى قصره من دخائر وأموال ونقلها إلى داره[٥].

لكن أخطر ماقام به أبو على هو محاولته القضاء على الخلافة الفاطمية والمذهب الاسماعيلى، وإظهار مذهب الإمامية الاثنى عشرية[٦]، الذى كان

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٣٨/ انظر: ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٧٢.

(٢) نفس المصدر جـ٣ ص ١٣٨/ نفس المصدر جـ٤ ص ٧٢.

(٣) ابن الأثير الكامل جـ٨ ص ٣٣٤، ٣٣٥/ ابن ميسر: أخبار مصر ص ١١٣/ ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٣ ص ٢٣٦/ ابن خلدون العبر جـ٤ ص ٧٢/ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٢٣٧/ ابن العماد: شذرات الذهب جـ٤ ص ١٣٨.

(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٤٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل جـ٨ ص ٣٣٤، ٣٣٥/ ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٧٢.

(٦) انقسمت الشيعة الجعفرية بعد وفاة جعفر الصادق حوالى سنة ١٤٧هـ إلى فرقتين بسبب الخلاف على الإمامة، فالبعض نادى بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وسلسلوا الإمامة فى الأكبر سناً من عقبة إلى أن أشيع بأن الرمام الثانى عشر وهو محمد بن الحسن العسكرى دخل سرداباً فى مدينة سامراء وأنه اختفى فى هذا السرداب، ويقول شيعته أنه لايزال إلى الآن حيا، وسميت هذه الفرقة بالموسوية نسبة إلى موسى الكاظم أو الإمامية الاثنى عشرية نسبة إلي عدد الأئمة، أما الفرقة الثانية التى تفرعت عن المذهب الجعفرى فهى فرقة الاسماعيلية الذين قالوا بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق، فنسبت إليه الفرقة (محمد كامل حسين: طائفة الاسماعيلية ص١١.

المذهب الاسماعيلى، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما اتخذ خطوة جديدة لم يسبقه إليها أحد، وهى تعيين أربعة قضاة: اثنين من السنة إحداهما شافعى والآخر مالكى، واثنين من الشيعة، احداهما اسماعيلى والآخر إمامى[١]، واعطى لكل منهم السلطة فى أن يحكم ويورث وفق مذهبه[٢]، مما دفع ابن ميسر إلى القول بأنه (لم يسمع بهذا قط فيما سلف)[٣].

أما عن الحمل الذى قيل أنه من الآمر، فقد كان أبو على دائم البحث عنه ليقتله انتقاماً لمن قتلهم الآمر من إخوته[٤]، ورغبة منه فى التخلص من وريث شرعى للخلافة[٥]، ليخلو له الطريق وينفرد بالسلطة، خاصة بعد أن ألقى القبض على الحافظ وحبسه، ولذلك (أشتد ضرره على أهل القصر، من الارعاد والابراق، وأكثر ازعاجهم والتفتيش على ولد الآمر)[٦] لكنه لم يتمكن من العثور عليه[٧]، وبالرغم من ذلك فقد اختلف المؤرخون فى شأن هذا المولود، فيذكر البعض[٨] أن المرأة التى تركها الآمر حاملاً قد وضعت انثى، فاستقر

(١) وهم على التوالى: قاضى الشافعية سلطان بن ابراهيم بن مسلم بن رشا توفى سنة ٥٣٥ هـ، وقاضى المالكية أوعبد الله محمد بن أبى عبد الله محمد بن عبد الله اللبثى المغربى المالكى. وقاضى الاسماعيلية هو أبو الفضل (ويقال أو الفضائل) هبة الله بن عبد الله بن حسن بن محمد الانصارى الأوسى المعروف بابن الأزرق، أما قاضى الإمامية فهو هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن أبى كامل، وكان من فقهاء الإمامية وصدورهم. (ابن ميسر: أخبار مصر ص١١٤، ١١٥/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٤٢.

(٢) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١١٤، ١١٥ / المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٤٢.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١١٥/ انظر: المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٤٢.

(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٤١.

(٥) سرور: الدولة الفاطمية ص ١٢١.

(٦) نفس المصدر جـ٣ ص١٤١.

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٣ ص ٢٣٧/ النويرى: نهاية الأرب جـ٨، ص٢٩٨/ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٢٣٩.

(٨) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٢.

يعتنقه[١]، وذلك بتحريض من اتباع هذا المذهب الذين (حسنوا له الدعوة للقائم المنتظر)[٢] كذلك أمر الخطباء بإسقاط اسم اسماعيل بن جعفر الصادق، الذى ينسب إليه المذهب الاسماعيلى، من الخطبة، والدعاء لمحمد المنتظر[٣]، واستبعاد عبارة (حى على خير العمل) و (محمد وعلى خير البشر) من الأذان[٤]. كما ضرب النقود باسم الأمام المنتظر ونقش عليها (ابو القاسم المنتظر بأمر الله أمير المؤمنين، الإمام محمد) كما يظهر ذلك فى النقود التى ضربت فى الاسكندرية سنة ٥٢٥ هـ[٥].

كذلك أمر الخطباء بأن يدعوا له على المنابر بألقاب اختارها لهم بنفسه، وهى (السيد الأجل الأفضل، سيد ممالك أرباب الدول، المحامى عن حرزة الدين، وناشر جناح العدل على المسلمين، الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق فى حالى غيبته وحضوره، والقائم فى نصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره، أمين الله على عباده، وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده، ومرشد دعاته المؤمنين إلى واضح بيانه وإرشاده، مولى النعم، رافع الجور عن الأمم، مالك فضيلتى السيف والقلم)[٦].

لم يكتف أبو على أحمد بهذه الخطوات التى اتخذها فى سبيل اضعاف

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ٨ ص ٣٣٥/ ابن ميسر: أخبار مصر ص ١١٧/ ابن خلدون العبر جـ٤ ص ٧٢/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٤٠.

(٢) ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٧٢/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٤٠.

(٣) وهو محمد بن الحسن العسكرى الإمام الثانى عشر كما هو وارد فى الهامش السابق.

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١١٧/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٤٣.

(٥) ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٧٢ / المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٤٠، ١٤١

Lavoux: Catalogue des Monnaies Musulmanes, p. 163, Piece, no, 439

Lane-Poole: Catalogue of the Collection of Arabic Coine, p.194.

(٦) انظر: ابن الاثير: الكامل جـ٨ ص ٣٣٥/ ابن ميسر: أخبار مصر ص ١١٦/ المقريزى: اتعاظ الحنفا ص ١٤٣، ١٤٤.

الحافظ خليفة، بينما يذكر البعض الآخر[١]: أن المولود كان ذكراً وأن أمه عملت على إخراجه من القصر وإخفائه خوفاً عليه من القتل، وذلك بأن وضعته فى قفة من خوص وأرسلته إلى القرافة وستر أمره إلى أن كبر، وكان يعرف بين الصبيان بقفيفة وظل هذا الطفل مختفيا فى القرافة إلى دل عليه ابن الجوهرى الواعظ[٢]، فقبض عليه الحافظ وقصده حتى مات.

وإذا كان بعض المؤرخين - كما قلنا - قد ذكروا أن الخليفة الآمر مات دون أن يعقب ولداً من نسله ليلى الإمامة من بعده، وأنه ترك إحدى سراريه حاملاً، فقد ذهب البعض الآخر إلى أن الآمر قد ترك طفلا منصوصاً على إمامته، غير أن هذا الطفل لم يظهر على مسرح الأحداث السياسية بعد موت أبيه، بالرغم من أن مولد هذا الطفل قد أكدته بعض النصوص والسجلات التى وردت فى المصادر التاريخية، وأول هذه النصوص ذكره ابن ميسر[٣]، والنص بما ورد فيه من معلومات لايترك مجالا للشك فى صحته، فهو يذكر مولد ابن للخليفة فى تاريخ محدد (ربيع الأول سنة ٥٢٤ هـ واسم وكنية المولود (أبا القاسم الطيب) واعلان البشرى بولادته وتوليته الإمام من بعده (وجعله ولى عهده) ويصف كيف احتفل الآمر بهذا المولود احتفالاً شعبيا (فزينت مصر والقاهرة وعملت الملاهى فى الأسواق، وبأبواب القصور، ولبست العساكر وزينت القصور) كما يذكر كبار رجال الدولة الذين حضروا الاحتفال وعلى رأسهم قاضى القضاة ابن ميسر (وأحضر المولود فشرف قاضى القضاة ابن ميسر بحمله).

كما يؤكد هذا الرأى السجل الذى أرسله الآمر لملكة اليمن السيدة الحرة يبشرها فيه بمولد ولى عهده "أبى القاسم الطيب"، ويطلب منها أن تذيع هذا

---

(١) ابن الجوهرى: وهو أبو عبد الله الحسين أبى الفضل بن الحسين الزاهد المعروف بابن بشرى الجوهرى الواعظ، نفاه الخليفة الحافظ إلى دمياط فمات بها فى جمادى الأولى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة (المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٤٥١، ١٥٢).

(٢) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٠٩، ١١٠/ انظر: المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٢٨/ الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٧٧ - ٨٢.

النبأ في بلاد اليمن، وقد أشار إلى هذا السجل عمارة اليمني في كتابه تاريخ اليمن، وهذا السجل أيضاً لا يستطيع أن يرفضه البحث التاريخي[١].

وفي ضوء ماسبق ذكره، يبدو أن الخليفة الآمر كان له أكثر من ابن أحدهم قفيفة الذي أجبته إحدى سراري الآمر والذي قتله الحافظ بعد أن وشى به ابن الجوهري، والآخر أبو القاسم الطيب الذي لم يظهر على مسرح الأحداث السياسية بعد مصرع أبيه، ولم يقدم المؤرخون تفسيراً لهذا الغياب بالرغم من أنهم أكدوا لنا مولده، ولا اعتقد أن صاحب كتاب البستان الذي انفرد بذكر أحد النصوص التي تشير إلى أن الخليفة الحافظ دس رجلاً اسمه ناصر الليثي، أخذ هذا الطفل وأخفاه، قد حل لنا هذه المشكلة بل أضفى مزيداً من الغموض عليها عندما ذكر في نهاية النص أن هذا الطفل "لم يظهر له خبر إلى الآن بموت أو بغيره"، وعلى كل حال، فقد كان لإختفاء هذا الطفل أو مقتله أثر واضح في ظهور مزيد من المشكلات السياسية والمذهبية للخلافة الفاطمية.

وكان من أثر السياسة التي اتبعها أبو أحمد بن الأفضل والتي تنطوي على مناهضة المذهب الاسماعيلي أسوأ الأثر في نفوس الاسماعيلية الذين لم يرضوا بأن تضيع دولتهم على يده، فكونوا معارضة قوية ضده[٢]، اشترك فيها

---

(١) عمارة اليمني: تاريخ اليمن ص١٢٨/ انظر: الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٨٠.

(٢) مؤرخ مجهول عاش في القرن السادس الهجري وكتابه يسمى (البستان الجامع) وقد نشر قطعة منه كلود كاهن في:

(Bulletin d'Etudes Orientales, Damas, 1938, p. 121-2)

انظر: الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٨٢.

(٣) انظر: ابن ميسر: أخبار مصر ص ١١٥/ النويري: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٢٩٨/ المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٤٣/ سرور الدولة الفاطمية ص١٢١.

صبيان الخاص[١] وطائفة من الجند المغاربة من كتامه[٢] وذلك بزعامة الأمير يانسى[٣]، وصمموا على قتله، فأخذوا يتحينون الفرص للنيل منه، إلى أن كمن له جماعة منهم وقتلوه، وذلك فى السادس عشر من المحرم سنة ٥٢٦ هـ/ ٨ ديسمبر ١١٣١م. بعد أن ظل مستأثراً بالحكم أكثر من عام. ومن ثمّ أخرجوا الحافظ من سجنه[٤].

ويقتل الوزير أبى على أحمد بن الأفضل فشلت محاولة نشر مذهب الإمامية فى مصر، واستبعاد المذهب الاسماعيلى مكانته بعد فترة انقطاع استمرت ما يقرب من عام. واعتبر اليوم الذى أطلق فيه سراح الحافظ من سجنه عيداً عرف بعيد النصر[٥]، رمزاً لانتصار الدولة مرة أخري، فكان قاضى القضاة يتلو على الحاضرين أسماء من أصيب من الأنبياء والصالحين والملوك، حتى يصل أخيراً إلي ما وقع للخليفة الحافظ، وظل الفاطميون يحتفلون بهذا العيد إلى أن زالت دولتهم[٦].

(١) صبيان الخاص: وهم أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة الذين يتولون خدمة الخليفة فى حياته الخاصة، وكانت عدتهم نحو الخمسمائة، ويسكنون أماكن خاصة، ويتدربون على الفروسية. وقد قتل يانس - فيما بعد - مئات منهم، كما قتل ابن السلا - أيام الخليف الظافر (٥٤٤ - ٥٤٩هـ/ ١١٤٩ - ١١٥٤م) عدداً كبيراً منهم فانكسرت بذلك شوكتهم (ابن ميسر: أخبار مصر ص ١١٧/ المقريزى: الخطط جـ٢ ص١٧/ مشرفة: نظم الحكم ص ١٠٩)

(٢) ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٧٢.

(٣) الأمير يانسى: وهو أرمنى من غلمان الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى(ابن ميسر: أخبار مصر ص ١١٧/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٤٤)

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١١٥، ١١٦/ ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٣ ص ٢٣٦/ النويرى: نهاية الأرب جـ٨، ص٢٩٨/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٤٣.

(٥) انظر: المقريزى: الخطط جـ١ ص ٤٩٠، ٤٩١.

(٦) انظر: المقريزى: الخطط جـ١ ص ٤٩٠، ٤٩١/ سرور الدولة الفاطمية ص ١٢١/ ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ص٤٢٨.

فلما أطلق سراح الحافظ أعيد مرة أخرى ولياً للعهد وكفيلا للطفل المنتظر، وهذا مايشير إليه المقريزى بقوله: (فاجتمع الناس، وأخذ له العهد على أنه ولى عهد كفيل لمن لم يذكر أسمه) ويؤكده أيضا وجود عمله ضربت فى الاسكندرية سنة ٥٢٦ هـ/ ١١٣١م نقش عليها (أبو الميمون عبد المجيد، ولى عهد المسلمين)[٢] وذلك لأن الحافظ لم يكن له حق شرعى فى الخلافة لأنه لم يكن ابناً للآمر وإنما هو ابن عم، ومن المعروف أن الفاطميين كانوا ينظرون إلى الخليفة باعتباره إماماً يرث عن طريق التعيين بالنص، وأنه لابد أن تكون الإمامة فى الأعقاب دون غيرهم[٣].

ولما كان الحافظ يطمع فى الخلافة فقد حاول أن يتغلب على هذه المشكلة المذهبية التى تعرض من طريقه، وفى الثالث من ربيع الأول سنة ٥٢٦ هـ/ ٢٣ يناير سنة ١١٣٢م[٤] حسم الأمر وأعلن على الملأ توليه الخلافة وهذا مايشير إليه المقريزى بقوله: (وفيها استقرت حال الحافظ لدين الله وبويع له بيعة ثانية لما عدم الحمل)[٥] ولقد وصلنا سجل البيعة[٦] الذى قدم فيه الحافظ مبررات

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٤٣.

(2) Rogers: Ouelques Pieces Rares, in (Bulletiex de L'mstitut d'Egypte. 1882, p. 31)/

Lane-Pool: Catalogue of the Collection of the Arabic Coins, p. 195.

(٣) حسن ابراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٦٧/ سرور: الدولة الفاطمية ص ١٢١/ محمد كامل طائفة الاسماعيلية ص ١٢.

(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٤٦.

أما ابن ميسر فقد ذكر أن السجل متصدر فى الثالث من ربيع الآخر (أخبار مصر ص١١٧).

(٥) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٤٦.

(٦) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٩ ص ٢٩١ - ٢٩٧/

توليه الخلافة والذى أعلن فيه: أن الآمر كان قد أوصى له بالأمر مع وجود عم له وذلك اقتداء برسول الله الذى عقد لابن عمه على يوم غدير خم (وفعل مافعل جده رسول الله اقتداء به وانتهاء إليه). ثم ذكر سابقة تاريخية فى العصر الفاطمى نفسه وهى: أن الحاكم بأمر الله جعل ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس ولى عهد المسلمين (وميزه بذلك على كافة الناس أجمعين، ونقش اسمه على السكة، وأمر بالدعاء له على المنابر وبمكة، وألبسه شدة الوقار المرصعة بالجوهر، واستنابه عنه إمام الأعياد فى الصلاة وفى رقى المنبر).

ومن ثم، أمر الحافظ، بعد أن تمت البيعة له، بأن يدعى له على المنابر بهذا الدعاء، وهو: (اللهم صلِّ على الذى شيدت به الدين بعد أن رأم الأعداء وثوره، وأعززت الإسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره، وجعلته آية لمن تدبر الحقائق بباطن البصيرة، مولانا وسيدنا، وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبى الميمون، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، صلاة دائمة إلى يوم الدين)[١].

ولما علمت ملكة اليمن السيدة الحرة بما أقدم عليه الحافظ من توليه الخلافة، أغضبها هذا التصرف واعتبرت إمامته باطلة، بالرغم من محاولاته المتكررة لاستمالتها إلي جانبه واعلان ولائها له، لأنها - كما سبق أن ذكرنا - قد تسلمت رسالة الآمر الذى بشرها فيها بمولد ابنه أبو القاسم الطيب، وأخذت العهد على نفسها بنشر الدعوة له، وبهذا نظرت إلي الحافظ نظرة المغتصب وتخلت عن الدعوة له وقالت: (حسب بنى الصليحى ماعلموه من أمر مولانا الطيب)[٢]. ولكن يخيل إلينا أن هذا الموقف المتشدد من السيدة الحرة لم يكن دافعه الوحيد الحفاظ على ولائها للإمام الطيب ودعوته ولكن يبدو أنه اتخذت ذلك ذريعة للانفصال عن الخلافة الفاطمية والاستقلال السياسى والدينى عنها.

---

(١) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١١٧/ النويرى: نهاية الأرب جـ ١٨ ص ٢٩٨/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٤٦.

(٢) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص١٣٠.

وعلى كل حال، فقد عمل الحافظ على إعادة نفوذه المذهبى على بلاد اليمن، فاتصل بآل زريع بعدن واستعان بهم فى بث دعوته هناك، وكان لجدهم زريع بن العباس دور واضح فى نشر الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن مع الداعى على بن محمد الصليحى ثم مع ابنه أحمد المكارم فعنى دعاة ال زريع بإقامة الدعوة للخليفة الحافظ الذى حرص بدوره على تقليد أميرهم علىّ بن سبأ أمر الدعوة وحكم هذه البلاد ولقبه (الداعى المعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين)[١]. وقد أدى هذا الأمر إلي انقسام الاسماعيلية ببلاد اليمن إلى فريقين: فريق يناصر الخليفة الحافظ ويتزعمه آل زريع وفريق آخر يؤيد الدعوة الطيبية وعلى رأسه السيدة الحرة[٢].

وفى ضوء هذا الانقسام الذى نجح الخليفة الحافظ فى إحداثه فى صفوف أهل اليمن، كان لابد من أن تسوء الأحوال هناك، وتضعف بالتالى الدعوة الطيبية، خاصة بعد وفاة السيدة الحرة سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨م. فقد تفككت أوصال الدولة الصليحية وزال ملكهم بعد أن عجز خلفاؤها عن الاحتفاظ بما انتقل إليهم من ملك[٣].

ولما تولى يانسى الوزارة (١٦ من المحرم سنة ٥٢٦ هـ/ ٨ ديسمبر ١١٣١م) استطاع بماله من نفوذ وهيبة أن يسيطر على مقاليد الأمور فى الدولة، فساءت العلاقات بينه وبين الخليفة الحافظ، وبدأ كل منهما يتخوف من الآخر أو كما يقول ابن خلدون: (فاستوحش كل منهما بصاحبه)[٤] فعمل يانسى على القضاء على صبيان الخاص[٥]، وهم حرس الخليفة ومكمن قوته،

(١) ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٢١٩.

(٢) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص١٢٩، ١٣٠/ ابن خلدون: العبر جـ٤ ص٢١٩/ سرور: سياسة الفاطميين ص ١٠٥/ حسن سليمان: الصليحيون ص ١٩١ - ١٩٣.

(٣) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص١٢٠/ ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٢١٤ - ٢١٦/ سرور: سياسة الفاطميين ص ١٠٤، ١٠٥.

(٤) ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ١٥٢/ انظر: ابن الاثير: الكامل جـ٨ ص٣٣٥.

(٥) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١١٧/ النويرى: نهاية الأرب جـ٨، ص ٢٩٩.

والذين قتلوا من قبل أبا على أحمد، خشية أن يفعلوا به نفس الشئ، فشعر صبيان الخاص بما يدبر لهم فتاصبوه العداء[١].

لذلك قام يانسى بمهاجمة صبيان الخاص، والحق بهم الهزيمة بموضع أمام باب التهاين[٢]، وقتل منهم مايقرب من ثلثمائة فارس، وبذلك أضعف قواهم، وكسر شوكتهم. وكون لنفسه طائفة من الجند عرفت باسم (اليانسية)[٣]. ثم أخذ يسئ معاملة رجال القصر، فقبض على حاشية الخليفة الحافظ، ومنهم قاضى القضاة وداعى الدعاة وقتلهما، فاشتد ذلك على الخليفة الحافظ وعمل على التخلص منه، وذلك بقتله بالسم، وتم له ذلك فى آخر ذى الحجة سنة ٥٢٦هـ/ نوفمبر ١١٣٢م، بعد تسعة أشهر من توليه الوزارة[٤].

لما قتل يانسى، تولى الحافظ أمور الدولة بنفسه ولم يتخذ وزيراً له، بعد أن عانى منهم الكثير، لذلك ترك هذا المنصب شاغراً إلى أن كلف ابنه الأكبر ولى عهده سلمان بأن يقوم مقام الوزير، وذلك سنة ٥٢٨ هـ/ ١١٣٤م ولكنه مات بعد شهرين، فعين بدلاً منه ابنه أبا تراب حيدرة وجعل له طائفة من الجند خاصة به تعرف بالطائفة العهدية[٥]، فشق ذلك على أخيه حسن الذى كان يتطلع إلى

---

(١) المقريزى: الخطط جـ٢ ص ١٧.

(٢) باب التبانين: وهو أحد أبواب القصر الغربى الذى بناه الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ/ ٩٧٥ - ٩٩٦م) وهو يقع غربى القصر الشرقى الذى بناه الخليفة المعز لدين الله، ولكنه أصغر منه، لذلك أطلق عليه (القصر الغربى الصغير) تمييز له عن (القصر الشرقى الكبير) وكان مكان سوق النحاسين وجامع قلاوون تقريباً.

(٣) المقريزى: الخطط ج٢ ص ١٦

(٤) نفس المصدر جـ٢ ص١٧.

(٥) ونحن لدينا السجل الصادر من الخليفة الحافظ بذلك، والذى ينص على أن يتحيز من رجال دولته ووجوه أجناده وشيعته طائفة تنتمى إلى ولى عهده، وقد نص السجل على الأعمال المنطوه بهذه الطائفة، فهى لاتعتبر طائفة من طوائف الجيش العامل، بل تظلم موقوفة على خدمة ولى العهد، أى أنها لاتعدو أن تكون حرساً خاصاً لولى العهد (القلقشندى: صبح الأعشى جـ٩ ص٣٧٧ - ٣٧٩/ الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية. الوثيقة السابعة - ص ١٠٣ - ١٠٧.

ولاية العهد والوزارة، فأعلن العصيان، واوقع الفتنة بين طوائف الجند من الجيوشية[١] والريحانية[٢] فاشتعلت نيران الحرب بينهما وقتل منهم خمسة آلاف[٣] وذلك فى الخامس من رمضان من نفس العام[٤].

وقد ترتب على اشتعال هذه الفتنة ظهور أوباش الناس الذين التفوا حول حسن، فكون منهم طائفة خاصة أطلق عليها اسم صبيان الزرد[٥]. فقوى بهم، وقدمهم على غيرهم، وانعم عليهم، وأقطعهم البلاد، وولاهم الولايات، وجعلهم امراء دولته وأجناده[٦]، فكانوا سبباً فى نشر الفوضى فى انحاء البلاد، أو كما يقول المقريزى (صارو يحسنون له كل رذيلة، ويجرونه على أذى الناس)[٧].

دفعت هذه التطورات المتلاحقة الحافظ إلى الغاء وصيته الأولى واصدار سجل جديد بولاية العهد لابنه حسن، فى محاولة منه لاسترضائه وتطويق هذه

(١) الجيوشية: وهى طائفة من الجند تنسب إلى أمير الجيوش بدر الجمالى (المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٣ ص ١٤٩ هامش).

(٢) الريحانيه: وهى طائفة من الجند لعلها تنسب إلى عزيز ادولة وريحان القائد الذى تولى إخماد ثورة بنى قرة فى البحيرة أيام المستنصر، فنال حظوة الخليفة وقرب إليه جماعة من المغاربة وزاد فى اعطياتهم، وهناك حارة من حارات القاهرة عرفت باسم حارة الريحانية نسبة إلى هذه الطائفة العسكرية (المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٣ ص ١٤٩ هامش)

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٣ ص ١٤٩

يذكر كل من ابن ميسر والنويرى أن القتلى كانوا نحو عشرة آلاف ويبدو أن هذا العدد كان مبالغا فيه (أخبار مصر ص ١١٩/ نهاية الأرب جـ ٢٨ ص ٢٩٩) (انظر: ابوصالح الأرمنى: كنائس وأديرة مصر ص ٦٨)

(٤) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٢٩٩.

(٥) وقد أطلق عليهم هذا الأسم لأنهم كانوا يلبسون الدروع (انظر: الرازى: مختار الصحاح ص١١٤/ ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ص ٤٣٢).

(٦) ساويرس: تاريخ بطاركة الكنيسة مجلد ٣ جـ١ ص ٢٨.

(٧) المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٣ ص ١٥٠.

الفتنة، وإلى هذا يشير المقريزى بقوله: (فأخذ الحافظ فى تلافى الأمر مع حسن لينصلح، وعهد إليه بالخلافة فى يوم الخميس لأربع بقين من شهر رمضان وأركبه بالشعار، ونعت بولى عهد المسلمين، وكتب له بذلك سجلاً قرئ على المنابر)[١]. كما نقش اسمه على السكة[٢]، (فلم يزده ذلك إلا شراً وتعدياً)[٣] فاشتد هياج الأمراء والأجناد، خاصة بعد قتله لجماعة منهم، واجتمعوا فى عشرة آلاف فارس وراجل. وعندما شعر حسن أنه لاطاقة له على مواجهتهم قرر اللجوء إلى قصر أبيه، فذهبوا إليه هناك وحاصروه، وطالبوا الحافظ بتسليمهم إياه ليقتلوه، وإلا خلعوه وأحرقوا القصر، وضيقوا عليه الخناق إلى أن اضطر إلى تكليف طبيبه ابن قرقة بقتل ابنه حسن بالسم، فأجبره جماعة من الصقالبه على تناوله، فمات فى اليوم الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ هـ/ ٣١ مارس سنة ١١٣٥م[٤].

وخلاصة القول، أن هذه الفتنة قد أدت إلى إضعاف الجيش والخلافة الفاطمية وقد أكد المقريزى هذه النتيجة قد أكثر من موضع فى كتابة اتعاظ الحنفا، خاصة حين وقع صدام بين طوائف الجيش وقتل فيه مايزيد على خمسة آلاف رجل، ثم حين أمر حسن صبيان الزرد بالقبض على بعض الأمراء وقتلهم، فعلق على الحادثة الأولى بقوله: (كانت أول مصيبة نزلت بالدولة من فقد رجالها ونقص عساكرها)[٥] أما الثانية فقد قال فيها: (فاشتدت مصيبة الدولة

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٠/ انظر: ابن ميسر: أخبار مصر ص١٢١/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٠.

(2) Lane-Pool: Catalogue of the Collection of Arabic Coine, p. 196.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٠.

(٤) ابن ظافر: أخبار الدول المنقطعة. ورقة ٨٢/ ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٢٠، ١٢١/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٠/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٣ - ١٥٥/ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٢٤١ - ٢٤٣.

(٥) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٤٩.

بفقد من قتل من الأمراء الذين كانوا أركان الدولة، وهم أصحاب الرأى والمعرفة، فوهت واختلت لقلة الرجال وعدم الكُفاة)[١].

فى ذلك الوقت، انتهز بهرام الأرمنى، الذى كان يتولى الغربية آنذاك، فرصة هذه الاضطرابات، وتطلع إلى أن يلى منصب الوزارة، خاصة بعد أن تخلى أنصار حسن عنه لسوء سيرته، فجمع حشوداً ضخمة من مقطعى الغربية والأرمن والعربان وزحف بهم إلى القاهرة، فلما وصل إلى مشارفها فى يوم الخميس الحادى عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ هـ/ ٢٩ مارس سنة ١١٣٥م انتشرت حشوده هذه فى القرى والضياع فنهبوها، وانضم إليه كثير من الأمراء والأجناد، فتقوى بهم، واقتحم القاهرة.

فلما دخل بهرام القاهرة، راود الخليفة الحافظ على تولى منصب الوزارة، فاضطر الأخير، تحت ضغط من الجند، على الموافقة على طلبه[٤]، وخلع عليه يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الآخرة/ ٥ ابريل، خلع الوزارة[٥]، ونعت

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥١.

(٢) بهرام: وهو أرمنى من تل باشر، ويذكر المؤرخون أن سبب هجرته إلي مصر أن القائم بأمر الأرمن مات، وكان بهرام أحق بمكانه، فتعصب عليه جماعة من الأرمن ورفضوه ودلوا عليهم غيره، فخرج من تل باشر مغاضباً، وقدم إلى القاهرة، والتحق بخدمة الدولة، وكان بهرام عاملاً مقداما فى الحرب، حسن السياسة جيد التدبير، فتدرج فى وظائف الدولة حتى أصبح (زنان الأرض، أى القيم على شئون الأرمن) وفى سنة ٥١٧ خ خرج مع المؤتمن أخو الوزير المأمون لإخماد الثورة التى أشعلها اللواتيون وغيرهم فى الصعيد الأدنى ونجحوا فى ذلك، فعلت مكانته فى قصر الخلافة، حتى أصبح واليا للغربية وظل مقيماً بها إلى أن عاد إلى القاهرة وتولى الوزارة بعد مقتل حسن بن الحافظ. (ابوصالح الأرمنى: كنائس وأديرة مصر ص٧/ ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٢٢، ١٢٣/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص٣٠١/ ابن خلدون: العبر جـ٦ ص ١٥٢، ١٥٣/ ص٩٧، ١٧٥/ ساويرس: تاريخ بطاركة الكنيسة. مجلد ٣ جـ١ ص ٢٨، ٢٩).

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٥، ١٥٦.

(٤) ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٧٣.

(٥) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٥٦.

(بسيف الإسلام تاج الملوك)[١] بالرغم من أنه نصرانى ولايجوز له تولى وزارة تفويض[٢]، لأنه يتحتم عليه أن يرقى مع الخليفة المنبر فى الأعياد ليزرر عليه المزرة (الستارة) الحاجزة بينه وبين الناس، ولأن القضاة - أيضا - كانوا ينبوبون عن الوزراء منذ أيام أمير الجيوش بدر الجمالى، وكانت هذه النيابة تذكر فى الوثائق الرسمية سواء أكانت أحكاما أم كتب أنكحة[٣].

هذا بالرغم من أن بعض رجال الحاشية قد نصحوا الخليفة الحافظ بأن لايقدم على هذا العمل[٤] الذى من المؤكد أنه سيثير المسلمين، ولكن يبدو أنه كان راغبا فى هذه التولية حتى تسكن الفتنة، ويهدأ الجند[٥]، واعتقاداً منه - فى نفس الوقت - أن بهرام سيكون أقل طغياناً من الوزراء المسلمين. كما أن الحافظ ازداد قناعة بهذه التولية عندما اجتمع به ورأى منه (عقلا وافراً وإقداماً فى الحرب والسياسة وحسن تدبير)[٦].

لذلك حاول الخليفة الحافظ حل هذه المشكلة بأن جعل قاضى القضاة ينوب عن بهرام فى الصعود إلى المنبر، وأن يرفع اسمه من كتب الأحكام والانكحة (ويفعل ماكان قبل أمير الجيوش)[٧] وذلك بأن يكون تولية القضاة والدعاة من

---

(١) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٢٢/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٠.

(٢) كان اختيار مسيحى كوزير تفويض سابقة لم تحدث من قبل لأن الفقهاء أجازوا أن يتولى المسيحى وزارة تنفيذ، وليس وزارة التفويض، وذلك لأن وزير التفويض يتدخل فى القضاء والدعوة (ماجد: ظهور خلافة الفاطميين ص ٤٣٢، ٤٣٣).

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٢٣/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠١/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٦.

(٤) يذكر بعض المؤرخين أن الحافظ قد (استشار بعض أهله وأكابر دولته فيه - يقصد بهرام - فكلهم كره ذلك وأشار عليه ألايفعل) (النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠١/ انظر: ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٣٢/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٦).

(٥) انظر: المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٦.

(٦) ابن ميسر: أخبار مصر ص١٢٢/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠١/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٧.

(٧) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٢٣/ انظر: النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠١/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٥٦.

اختصاص الخليفة.

ومن ثم، أخذ بهرام يعمل على اكتساب ثقة الخليفة ومحبته بالتقرب منه والتفانى فى طاعته، كما عمل على إزالة أثار الفتنة التى قام بها ابن الخليفة الحافظ، وذلك بمعالجة حالة الانقسام بين طوائف الجند، بتوزيع الأموال عليهم لإسترضائهم[١]، فحققت سياسته هذه نجاحاً ظاهراً (فاستقامت له الأحوال، وراسله الملوك وزال ماكان فى البلد من الفتن)[٢].

وبالرغم من هذا، فقد سخط الناس ورجال القصر على بهرام لأنه نصرانى[٣]، ولأنه لم يحاول التقرب منهم واسرضاءهم كما فعل الخليفة والجند، بل لم يكترث بمشاعرهم، وعمل على التخلص من كل المناوئين له فى الجيش وقصر الخلافة، لكى يدعم مركزه وسلطانه فى مصر، فاظهر تحيزاً واضحاً إلى بنى جنسه ودينه عندما سعى إلى إنشاء إدارة حكومية تدين له بالولاء الكامل وتكون محل ثقته، وقوات من الجند تكون تحت إمرته لحمايته، خاصة بعد أن شعر أن الوصول إلى منصبه هذا أو البقاء فيه أصبح عن طريق القوة[٤]، لذلك طلب من الخليفة الحافظ أن يسمح له باحضار أخوته وأهله، فأذن له، فتدفق منهم عدد كبير من تل باشر[٥] ومن بلاد الأرمن، حتى بلغ عددهم ثلاثين ألف بعد زمن قصير[٦].

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٦/ سلام شافعى: أهل الذمة فى مصر ص ٥٤.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٦.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٦.

(٣) انظر ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٥٤/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠١، ٣٠٢/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٦/ سلام شافعى أهل الذمة فى مصر ص٥٤، ٥٥.

(٥) تل باشر: حصن وكورة شمالى حلب، ويقدر ياقوت المسافة بينهما بيومين، وأهلها من النصارى الأرمن (ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص ٤٠٢).

(٦) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٢٤/ النويري: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠١/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٥٩.

وقد سلك هؤلاء القادمون الجدد مع المسلمين مسلكا لاينطوى على الود والتسامح، بل اتسم بروح العداء والكراهية، فعزلوهم من وظائفهم، وصادروا أموالهم، وأكثروا من بناء الكنائس والأديرة، حتى صار لكل رئيس منهم كنيسة بجوار داره، ثم أخذ بهرام يعين أهله وبنى جنسه فى الوظائف والولايات، فولى أخاه الباساك على مدينة قوص، وهى من أهم الولايات فى صعيد مصر، فجار على أهلها جوراً عظيما، واستباح أموالهم وظلمهم.

فلما بلغت هذه الأعمال درجة كبيرة من الخطورة، أقلقت بال أمراء المسلمين، كتبوا إلى رضوان ابن الوخشى وإلى الغربية، يستحثونه على المسير إليهم وانقاذهم مما هم فيه من كرب وبلاء[٥]. وكان رضوان هذا من أعظم الأمراء الذين يتصفون بالشجاعة والاقدام، وكان يلى حجابة ابن الخليفة الحافظ، فخشى بهرام وثوبه عليه، فعمل على أبعاده عن مصر، وولاه عسقلان فى شهر رجب سنة ٥٢٩هـ/ ابريل سنة ١١٣٥م. غير أن رضوان نجح - من موقعه الجديد - فى التصدى للمهاجرين الأرمن، ومنعهم من التسرب إلى داخل مصر، ووقف لهم بالمرصاد[٦]. فلما وصلت هذه الأخبار إلى بهرام أمر

(١) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٢٤/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠١، ٣٠٢/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٩/ العينى: عقد الجمان جـ٢١ ورقة ٥٧، ٩٢/ يوحنا: تاريخ الكنيسة ص ٤١٤.

(٢) ابن الوردى: تتمة المختصر جـ٢ ص ٤٠/ ساويرس: تاريخ بطارمة الكنيسة. المجلد الثالث جـ١ ص٣٠.

(٣) مدينة قوص: كانت ولاية قوص أعظم ولايات مصر زمن الفاطميين، ووالیها يحكم جميع بلاد الصعيد، يليها فى الأهمية الولايات الثلاث الرئيسية، وهى الشرقية والغربية والاسكندرية، ويدخل تحت هذه الولايات الأربع الولايات الصغار (القلقشندى: صبح الأعشى جـ٣ ص ٣٩٦ - ٣٩٨، ٤٩٣ - ٤٩٤/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٥٧ هامش/ ابن دقماق: الانتصار. القسم الثانى ص٢٨.

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٢٤/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٢/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٩.

(٥) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٢٤/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص٣٠٢/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٩.

(٦) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٢٤/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٨، ١٥٩.

باستدعائه إلى القاهرة، وعند وصوله استقبله الناس بالشكر على مافعله مع الأرمن، فتخلص منه بهرام وأبعده مرة أخرى وولاه على الغربية، وذلك فى صفر سنة ٥٣١ هـ/ نوفمبر سنة ١١٣٦م[١].

لذلك فقد انتهز رضوان هذه الفرصة التى اتيحت له للوصول إلى كرسى الوزارة، وسارع إلي تلبية نداء الأمراء، وكان حينئذ بمدينة سخا[٢]، فخطب بمسجدها خطبة بليغة، حض المسلمين فيها على الجهاد فى سبيل الله، والاجتماع لقتال بهرام وشيعته من النصارى الأرمن[٣]، وأخرج لهم (كتب الخليفة الحافظ إليه بالتقدم بالمسير ونزع الوزارة من يد بهرام، إذ تبين أنه ليس من أهل الملة)[٤] لكى يؤكد لهم مشروعية هذا القتال. فاجتمع له من العربان وغيرهم مايقرب من ثلاثين ألف رجل سار بهم إلى القاهرة فلما اقتربت حشوده من جيش بهرام أمر جنوده برفع المصاحف على رؤوس الرماح، فترك الجند المسلمون مواقعهم فى جيش بهرام وانضموا إلى رضوان[٥] (بينما بقى بهرام في الأرمن خاصة)[٦] ويبدوا أن هذا الانضمام كان متفقاً عليه من قبل لأن ابن ميسر يقول: (وكان ذلك باتفاق منهم مع رضوان قبل قدومه)[٧].

---

(١) ابن ميسر: ص ١٢٤/ نفس المصدر جـ٣ ص ١٥٨.

(٢) مدينة سخا: وهى كورة بمصر، من اقليم الغربية (المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٥٩ هامش/ ابن دقماق: الانتصار. القسم الثانى ص ٨٢.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٩.

انظر: ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٢٤/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٢/ ساويرس: تاريخ بطاركة الكنيسة: المجلد الثالث جـ١ ص ٣٠.

(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٩، ١٦٠.

(٥) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٢٤، ١٢٥/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٢/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٥٩، ١٦٠/ ساويرس: تاريخ بطاركة الكنيسة: المجلد الثالث جـ١ ص ٣٠.

(٦) النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٢.

(٧) ابن ميسر أخبار مصر ص ١٢٥.

انظر: النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٢.

بعث بهرام إلى الحافظ يخبره بما حدث له، ولكن يبدو أن الخليفة كان أضعف من أن يقف إلي جانبه، لذلك فقد نصحه (بالسير إلى الأعمال القوصية ليقيم بها عند أخيه حتى يرى رأيه)[١] فاضطر بهرام إلى مغادرة القاهرة، بصحبة ألفين من أتباعه الأرمن[٢]، بعد أن أخذ معه ماخف حمله، وخرج من باب البرقية، فى الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ٥٣١هـ/ ٤ فبراير سنة ١١٣٧م قاصداً أخيه الباساك والى قوص[٣].

وما أن علمت العامة أن بهرام قد غادر القاهرة، حتى قاموا بنهب دور الأرمن وكنائسهم[٤]، فطار الخبر إلى قوص، فثار المسلمون بها على الباساك وقتلوه، ومثلوا بجثته، فلما وصل بهرام إلى المدينة بعد يومين، ومعه طائفة من أصحابه، ورأى ماحل بأخيه، أمر بقتل جماعة من أهلها، ونهب المدينة[٥]، ثم غادرها وسار جنوبا إلى أسوان للاستيلاء عليها، والاحتماء بأهل دينهم[٦]، ويبدو أن مقتل أخيه على يد أهل مينة قوص قد أضعف موقفه ومكن كنز

---

(١) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٢٥.

(٢) ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٧٣.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٢٥/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٦٠.

(٤) يذكر المقريزى - بتصرف - أن: رعاع الناس وأوباشهم قد اقتحموا دار الوزارة ونهبوا ماقيها، وأن أيديهم قد أمتدت إلى دور الأرمن التى كانوا قد عمروها بالحسينية خارج باب الفتوح ونهبت جميعها، كما نهبوا كنيسة الزهرى، التى تقع فى بر الخليج الغربى، ونبشوا قبر البطريك، أخرى بهرام (اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٦٠، ١٦١/ انظر: ساويرس: تاريخ بطاركة الكنيسة. المجلد الثالث جـ١ ص٣١).

(٥) ابن ميسر: أخبار مصر ص١٢٥/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٣/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٦١.

يذكر كل من ابن خلدون وساويرس: أن الباساك لم يتعرض بالأذى لأهل مدينة قوص بالرغم مما فعلوه مع أخيه (العبر جـ٤ ص ٧٣/ تاريخ بطاركة الكنيسة. المجلد الثالث جـ١ ص٣١).

(٦) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٦٠.

الدولة[١] من التصدى له وإجباره على التراجع[٢]، مما أدى إلى فشل مشروعه، واللجوء إلى الأديرة البيض، وهى أماكن حصينة فى غربى إخميم[٣]، ففارقه جماعة من اتباعه وعادوا إلى بلادهم، بينما استقر هو هناك[٤].

لم يتوقف رضوان عن مطاردة بهرام فى صعيد مصر، فقد أرسل فى أثره أخاه الأكبر ناصر الدين[٥]، غير أن الأمر انتهى بدون قتال بعدما أعطاه (الأمان له وللأرمن الذين معه)[٦] وتم الاتفاق على إقامه بهرام بالأديرة البيضاء[٧]. ففارقه كثير من الأرمن الذين تبقوا معه، فسار البعض منهم إلى بلادهم، وأقام البعض الآخر فى مصر واشتغلوا بالزراعة وقد توسط بهرام لإيجاد مواضع لهم فى مصر يسكنونها، فخصصت لهم بعض الجهات، منها سمالوط وأبوان وقلوصنا والبرجين فى الصعيد وضيعة أخرى بأعمال المحلة[٨].

---

(١) كنز الدولة: لقب منح أول مرة أيام الحاكم بأمر الله لأمير أسوان أبى المكارم هبة الله بعد انتصاره على أبى ركوة الخارج حينئذ على الحاكم وإخماد ثورته. ثم أصبح هذا اللقب وراثياً فى أسرة أبى المكارم بعد ذلك (انظر: المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٦١ - هامش).

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ٨ ص ٣٥٦/ ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ٧٢.

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ص١٢٥/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص٣٠٣/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٦١/ ساويرس: تاريخ بطاركة الكنيسة المجلد الثالث جـ١ ص ٣١.

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر ص١٢٥/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٦١/ أبو صالح: كنائس وأديرة مصر ص ١٠٦.

(٥) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٢٦/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٣ أشار إليه كل من ابن خلدون والمقريزى بأسم: ابراهيم الأوحد (العبر جـ٤ ص ٧٣/ اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٦١.

(٦) ابن خلدون: العبر جـ٤ ص٧٣.

(٧) ابن ميس: أخبار مصر ص ١٢٦/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص٣٠٣/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٦١.

(٨) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٦٢.

ويبدو أن النورمان قد لعبوا دوراً هاماً فى توقيع هذا الاتفاق، وذلك بعد أن تم الاتصال بين الحافظ وروجار الثانى ملك صقلية[١]، وقد سفر هذا الاتصال فى نهاية الأمر عن قيام الحافظ باستدعاء بهرام إلى حاضرة الخلافة واسكنه فى قصره، لكنه لم يكنه من التصرف فى شئون الحكم وإنما (كان يشاوره فى تدبير أمور الدولة فيعجبه رأيه وحزمه وعقله)[٢] واستمر بهرام موضع رعاية الحافظ وعنايته إلى أن توفى فى ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٣٥ هـ/ ٧ ديسمبر سنة ١١٤٠م. فحزن عليه الحافظ حزناً شديداً، وسار فى جنازته إلى أن وضع فى قبره[٣].

أما رضوان فقد خلا له الجو بعد هروب بهرام إلى صعيد مصر، فدخل القاهرة ووقف بين القصرين إلى أن أذن له الحافظ بالنزول فى دار الوزارة، فخلع عليه خلع الوزارة[٤]، فى الثالث عشر من جمادى الأولى سنة ٥٣١هـ/ ٦ فبراير سنة ١١٣٧م وتلقب بالسيد الأجل الملك الأفضل، وكان بذلك أول من لقب بالملك من وزراء مصر[٥].

لكن من الملاحظ أن العداء ظل مستحكماً بين المسلمين والأرمن، فقد أشتد رضوان فى معاملة أعوان بهرام فاستولى على أملاكهم وقتل الكثير منهم، ثم أخذ فى إحلال المسلمين فى المناصب التى كانت فى أيديهم[٦]. وبذلك قضى رضوان على الجند الأرمن كما قضى بدر الجمالى على الأتراك من قبل،

---

(١) انظر نص الرسالة التى بعث بها الحافظ إلى روجار ملك صقلية والتى ورد الحديث فيها عن بهرام، وذلك فى كتاب (صبح الأعشى جـ٦ ص٤٥٨ - ٤٦٣).

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٧٥/ انظر: ابن ميسر: تاريخ مصر ص١٣٣.

(٣) نفس المصدر جـ٣ ص١٧٥/ نفس المصدر ص١٣٣.

(٤) ابن ميسر أخبار مصر ص ١٢٦/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٣/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٦١.

(٥) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٦١.

(٦) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٢٨، ١٢٩/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٦٣، ١٦٥.

وأصبح أكثر جنده من العرب، وإن ظلت هناك فرقتان هامتان هم الجيوشية والريحنيه[١].

غير أن هذا الوزير سلك مسلك الوزراء السابقين من الاستبداد ومحاولة الانفراد بالحكم، ولم يكتف بما نال من ألقاب وسلطات واسعة لم يحصل عليها غيره، بل هم بخلع الحافظ بحجة أنه ليس إماماً، بل هو كفيل لغيرة[٢]، وقد شاور فى ذلك داعى الدعاة وفقهاء الإمامية فلم يعينوه على ذلك[٣]. ويبدو - أيضا - أن رضوان لم يكن حريصاً على مذهب الدولة الرسمى، وهو المذهب الشيعى، ولذلك أنشأ سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م مدرسة سنية فى مدينة الاسكندرية سميت بالمدرسة الحافظية[٤]، أسند التدريس فيها إلي الفقيه المالكى أبى الطاهر بن عوف[٥]، ومن الجدير بالذكر أن ابن خلدون قد ذكر لنا أن رضوان كان سنى المذهب[٦]، وبالتالى نستطيع أن نتعرف على سبب تهاون

---

(١) المناوى: الوزارة والوزراء ص ١٨١.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٦٦/ انظر: ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ١٥٤.

(٣) نفس المصدر جـ٣ ص ١٦٦، ١٦٧/ نفس المصدر جـ٤ ص ١٥٤.

(٤) المدرسة الحافظية: وهى أول مدرسة انشئت فى مدينة الاسكندرية بل فى مصر كلها، وعرفت بالمدرسة الحافظية نسبة إلى الخليفة الحافظ، ولعل اختيار الاسكندرية بالذات لهذه المدرسة وغيرها من المدارس السنية راجع إلى وضعها الجغرافى واتصالها الشديد بالمغرب السنى لدرجة أنها كانت تعرف بباب المغرب. (ابن ميسر: أخبار مصر ص١٣٠/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص٣٠٤/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٦٧/ العبادى: التاريخ العباسى والفاطمى ص٣١٢).

(٥) أبو الطاهر بن عوف: وهو صدر الاسلام أبو الطاهر بن عوف اسماعيل ابن مكى بن اسماعيل بن عيسى بن عوف الزهرى الاسكندرانى المالكى، تفقه على يد أبى بكر الطرطوشى وسمع منه ومن أبى عبد الله الرازى، وبرع فى المذهب وقصده السلطان صلاح الدين وسمع منه الموطأ. وكان شيخ المالكية فى مدينة الاسكندرية طوال القرن السادس الهجرى. وقد ولد سنة ٤٨٥ هـ وتوفى سنة ٥٨١ هـ عن ست وتسعين سنة. وقد ذكر القلقشندى الصادر من الخليفة الحافظ بتعيين ابن عوف مدرساً بهذه المدرسة. (ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٣٠/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٦٧/ ابن العماد: شذرات الذهب جـ٤ ص ٢٦٨، ٢٦٩).

(٦) ابن خلدون: العبر جـ٤ ص ١٥٤.

رضوان بمذهب الشعية واستخفافه بالخليفة الحافظ.

لذلك عمل الحافظ على التخلص من رضوان وأبعاده عن الوزارة، فحرض قادة الجند وعلى رأسهم على بن السلار على عصيانه والوقوف فى وجهة، فلما وجد رضوان أن القوم قد اجتمعوا عليه، وأنه لاطاقة له بمواجهتهم اضطر إلى الهرب لبلاد الشام ومعه جماعة من العربان[١]، وذلك فى منتصف شهو شوال سنة ٥٣٣هـ/ يونيه سنة ١١٣٩م[٢] وأقام فى عسقلان، ثم غادرها ولحق بمدينة صلخد[٣] ونزل ضيفا على صاحبها أمين الدولة كمشتكين الأتابكى[٤]، وأقام عنده مايقرب من ثلاثة أشهر، ثم مالبث أن عاد إلى القاهرة فى مستهل صفر سنة ٥٣٤هـ/ سبتمبر سنة ١١٣٩م بعد أن انضم إليه ألف فارس من الأتراك، فتصدى له مايقرب من خمسة عشر ألف فارس من جند الحافظ بالقرب من باب الفتوح، وألحقوا به الهزيمة[٥]، واجبروه على الفرار واللجوء بمن معه من العربان والأتراك إلى صعيد مصر[٦]. فأرسل إلى الحافظ فى أثره الأمير المفضل ابن مصال[٧] الذى عرض عليه عهد الأمان، فاستسلم له وأحضره إلى القاهرة فى

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٦٩ - ١٧١.

(٢) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٣١.

(٣) مدينة صلخد: بالفتح ثم السكون، والخاء معجمة، والدال مهمله، بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهى قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة.(ياقوت: معجم البلدان جـ٣ ص ٤٠١).

(٤) وهو أمين الدولة كمشتكين والى صرخد وبصرى (ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٠)

(٥) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٣٢/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٥ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٧٣.

(٦) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٧٣.

(٧) المفضل بن مصال: هو الأمير المفضل أبا الفتح نجم الدين سليم ابن مصال، الذى تولى تدبير الأمور للخليفة الحافظ، ثم تولى الوزارة للخليفة الظافر فى أول عهده، لكن العادل بن السلار غضب لذلك ونجح فى طرده من الوزارة، فخرج من القاهرة وعبر النيل إلى الجيزة وجمع جماعة من المغاربة وسار بهم إلى الصعيد، متتبعته جيوش العادل ابن السلار إلى دلاص، من أعمال البهنا جنوب الوسطى، فقتل ابن مصال وأرسلت رأسه إلي القاهرة وطيف بها على رمح (ابن ميسر: أخبار مصر ص١٣٢/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص٣٠٥/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٧٣.

اليوم الرابع من ربيع الآخر من نفس العام. غير أن الحافظ لم يف بعهده، وأمر باعتقاله، بينما عفا عن الأتراك الذين كانوا معه[١].

ظل رضوان معتقلا مايقرب من ثمانى سنوات إلى أن تمكن من الهرب يوم ٢٣ من ذى القعدة سنة ٥٤٢هـ/ ١٤ ابريل سنة ١١٤٨م، فالتف حوله بعض الجماعات من الأجناد وعرب لواته، الذين تمكنوا من هزيمة جند الحافظ والدخول إلى القاهرة والنزول بالجامع الأقمر[٢]، وذلك يوم الجمعة ٢٦ من ذى القعدة. غير أن الحافظ كلف بعض من جند السودان بالتخلص من رضوان، واجزل لهم العطاء من أجل تنفيذ هذا، فخرجوا إليه، وقتلوه فى نفس اليوم وقطعوا رأسه وحملوها إلى الخليفة الحافظ[٣].

ومن الجدير بالذكر، أن الحافظ بعد أن قبض على رضوان سنة ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م كلف أحد أعوانه وهو الأمير أبا الفتح سليم بن مصال بتدبير أمور الدولة[٤]، ويبدو لنا مما ذكره المقريزى فى حوادث سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٨م[٥]،أن

---

(١) ابن ميسر: أخبار مصر ١٣٢/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٥/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٧٣.

(٢) الجامع الأقمر: انشأه الخليفة الآمر بأحكام الله، وقام على إنشائه وزيره المأمون البطائحى، وهو الآن بشارع المعز لدين الله (النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٥/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٨٣/ لينبول: سيرة القاهرة ص ١٤٨).

(٣) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٣٧، ١٣٨/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٥، ٣٠٦/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٨٢ - ١٨٤.

(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٧٤.

من المرجح أن الخليفة الحافظ قد صرف ابن مصال عن منصب الوزارة سنة ٥٤٢ هـ أى بعد القضاء على رضوان وقتله واستعان بالكتاب الذين ذكرهم المقريزى، وعلى ذلك فيمكن أن نحدد وزارة ابن مصال الأولى من سنة ٥٣٤هـ حتى سنة ٥٤٢هـ (انظر المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٧٤/ المناوى: الوزارة والوزراء ص ٢٨٠، ٢٨١).

(٥) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٨٢، ١٨٣.

ابن مصال كان يقوم بعمل الوزراء، غير أن المقريزى يعود ويذكر فى موضع آخر أن الحافظ لم يستوزر أحداً بعد رضوان وإنما: (أقام كتابا على سنة الوزراء أرباب العمائم ولم يسم أحداً منهم وزيراً)[١] ومن هؤلاء الكتاب: أبو عبد الله محمد بن الأنصارى[٢] الذى خلع عليه (بالحنك والدواة)[٣] فتصرف تصرف وزراء الأقلام، وصعد مع الخليفة فى الأعياد والجمع، والقاضي الموفق محمد بن معصوم التنسى، وضيعة الخلافة أبو الكرم الأخرق النصرانى[٤].

ويبدو - مما سبق ذكره - أن ابن مصال وغيره من هؤلاء الكتاب كانوا يقومون بعمل الوزراء دون أن يتلقبوا بذلك. ويبدو فى نفس الوقت أنهم كانوا وزراء تنفيذ، أى من ذوى الصلاحيات المحدودة والمقيدة، وذلك بعد أن عافى الحافظ الكثير من وزراء التفويض المستبدين.

وفى جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ/ اكتوبر سنة ١١٤٩م توفى الخليفة الحافظ بعد أن تولى الخلافة مايقرب من عشرين عاما[٥] قضاها فى صراع عنيف مع وزرائه الذين تحكموا فيه وفى مقاليد الأمور فى البلاد، فكانت لهم الكلمة العليا فى تقرير مصير الحياة السياسية والمذهبية لهذه الدولة التى شارفت على السقوط والزوال.

---

(١) نفس المصدر جـ٣ ص ١٨٩/ انظر: ابن ميسر: أخبار مصر ص١٤٠/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٩.

(٢) ابن ميسر: أخبار مصر ص١٤٠/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٨٩ يذكره النويرى باسم أبو على حسن الانصارى (نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٩).

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص ١٨٩.

(٤) ابن ميسر: أخبار مصر ص١٤٠/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٨٩.

(٥) ابن ميسر: أخبار مصر ص ١٤٠/ النويرى: نهاية الأرب جـ٢٨ ص ٣٠٧، ٣٠٨/ المقريزى: اتعاظ الحنفا جـ٣ ص١٨٩.

ثالثاً: وزراء الخليفة الحافظ
ومدة حكم كل منهم

أولا: وزراء تفويض:		
- أبو على أحمد بن الأفضل	٥٢٤-٥٢٦هـ	١١٣٠-١١٣١م
(١٥ من ذى القعدة ٥٢٤ - ١٦ من المحرم ٥٢٦هـ)		
(٢١ اكتوبر ١١٣١ - ٨ سبتمبر ١١٣١م)		
- ابو الفتح يانس	٥٢٦-٥٢٦هـ	١١٣١-١١٣٢م
(١٦ من المحرم ٢٦ ٥ - ٢٦ من ذى الحجة ٥٢٦هـ)		
(٨ ديسمبر ١١٣١م - ٧ نوفمبر ١١٣٢م)		
- الحافظ بدون وزراء	٥٢٦-٥٢٩هـ	١١٣٢-١١٣٥م
(٢٦ من ذى الحجة ٥٢٦ - ١٨ جمادى الآخرة ٥٢٩هـ)		
(٧ نوفمبر ١١٣٢ - ٥ ابريل ١١٣٥م)		
- بهرام الأرمنى	٥٢٩-٥٣١هـ	١١٣٥-١١٣٧م
(١٨ من جمادى الآخرة ٥٢٩ - ١١ من جمادى الأولى ٥٣١هـ)		
(٥ ابريل ١١٣٥ - ٤ فبراير ١١٣٧م)		
- رضوان بن الوخشى	٥٣١-٥٣٣هـ	١١٣٧-١١٣٩م
(١٣من جمادى الأولى ٥٣١ - ١٥ من شوال ٥٣٣هـ)		
(٦ فبراير ١١٣٧ - ١٥ يونيه ١١٣٩م)		
ثانيا: وزراء تنفيذ:		
سليم بن مصال	٥٣٤-٥٤٢هـ	١١٣٩-١١٤٧م
ثالثا: كتاب يقومون بأعمال الوزراء:		
- أبو عبد الله محمد بن الانصارى	٥٤٢-٥٤٤هـ	١١٤٧-١١٤٩م
- القاضى الموفق محمد بن معصوم التنسى		
- ابو الكرم الأخرون النصرانى		

رابعا: أهم المصادر والمراجع

العربية والأفرنجية

- ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٩م)

الكامل فى التاريخ (٩ أجزاء - بيروت - ١٩٦٧)

- حسن إبراهيم حسن

تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثانية - القاهرة - ١٩٥٨).

تاريخ الإسلام (٤ أجزاء - القاهرة - ١٩٨٢).

- حسن سليمان محمود

الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن (بالاشتراك مع حسن بن فيض الله الهمدانى- القاهرة - ١٩٥٥).

- ابن خلدون: (ت٨٠٨هـ/ ١٢٧١م) عبد الرحمن بن محمد

العبر وديوان المبتدأ والخبر (٧ أجزاء - بيروت- ١٩٧٩).

- ابن خلكان: (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) أبو العباس شمس الدين أحمد

وفيات الأعيان (٨ أجزاء - بيروت).

- ابن دقماق: (٨٠٩ هـ/ ١٤٠٦م) ابراهيم بن محمد المصرى

الانتصار لواسطة عقد الأمصار (الجزءان الرابع والخامس - والقاهرة - ١٣٠٩ - ١٣١٠ هـ).

- الرازى: محمد بن أبى بكر بن عبد القادر

مختار الصحاح (بيروت - ١٩٨٨).

- ساويرس: ابن المقفع اسقف الأشمونيين

تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية. المعروف بسير البيعة المقدسة (المجلدان

الثانى والثالث. تحقيق/ عزيز سوريال، وأخرين - القاهرة ١٩٥٩، ١٩٦٨).

- سرور: محمد جمال الدين

سياسة الفاطميين الخارجية (القاهرة - ١٩٦٧).

الدولة الفاطمية في مصر (القاهرة - ١٩٦٦).

- سلام شافعى محمود سلام

أهل الذمة فى مصر العصر الفاطمى الثانى والعصر الأيوبى - دار المعارف بمصر - ١٩٨٢).

- السيوطى (٩١٩ هـ/ ١٥٠٥م) جلال الدين عبد الرحمن

تاريخ الخلفاء (تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٧٦)

- الشيال: جمال الدين

مجموعة الوثائق الفاطمية (القاهرة ١٩٥٨)

- ابوصالح الأرمنى (٦٠٥ - ٦٠٦هـ) ابو المكارم جرجس بن مسعود

تاريخ الشيخ ابوصالح الأرمنى/ المعروف بتاريخ كنائس وأديرة مصر (اكسفورد سنة ١٨٩٥م).

- ابن ظافر: (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) جمال الدين أبوحسين على بن كمال الدين

أخبار الدول المنقطعة (مخطوط مصدر بدار الكتب المصرية - برقم ٨٩٠ تاريخ).

- العبادى: أحمد مختار

التاريخ العباسى والفاطمى (بيروت - ١٩٧١).

- ابن العماد (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م) أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (٨ أجزاء - بيروت - ١٩٧٩).

- العينى: (٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى

عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (مخطوط مصور بدار الكتب المصرية - برقم ١٥٨٤ - الجزءان ٢٠، ٢١).

- عمارة اليمنى: (٥٦٩هـ/ ١١٧٤م) نجم الدين عمارة بن أبى الحسن على

تاريخ اليمن (تحقيق/ حسن سليمان محمود - القاهرة).

- ابن القلانسى: (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) أبويعلى حمزة

تاريخ ابل القلانسي المسمى ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨).

- القلقشندى: (٨٢١ هـ/ ١٤١٨م) أحمد بن على

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (١٤ جزءاً - القاهرة - ١٩١٣-١٩١٧م).

- لينبول: ستانلى

سيرة القاهرة (ترجمة: الدكتور حسن ابراهيم حسن - القاهرة- ١٩٥٠).

- ماجد: عبد المنعم

ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر (الاسكندرية - ١٩٦٨).

نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر (جزءان - القاهرة ١٩٨٥).

- الماوردى: (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) أبو الحسن محمد بن حبيب

الاحكام السلطانية (بيروت - ١٩٧٨).

- أبو المحاسن: (ت٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) جمال الدين

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (وزارة الثقافة - القاهرة - الجزء الخامس).

- محمد كامل حسين

طائفة الاسماعيلية (القاهرة - ١٩٥٩).

- مشرفه: عطية مشرفة

نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين (القاهرة - ١٩٤٨).

- المقريزى: (٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م) تقى الدين أحمد بن على

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (جزءان - بيروت)

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء (جزءان - القاهرة - ١٩٧١، ١٩٧٢/ تحقيق الدكتور/ محمد حلمى محمد أحمد).

- المناوى: محمد حمدى

الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى (مصر - دار المعارف - ١٩٧٠).

- ابن ميسر: (٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م) تاج الدين محمد بن على بن يوسف

المنتظر من أخبار مصر (تحقيق/ أيمن فؤاد سيد - المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة).

- النويرى: (٧٣٣هـ/ ١٣٣م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب

نهاية الأرب فى فنون الأدب (تحقيق دكتور/ محمد محمد أمين - الجزء الثامن والعشرون - (القاهرة - ١٩٩٢).

- ابن الوردى: (٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م)

تتمة المختصر فى أخبار البشر (جزءان - القاهرة - ١٣٨٥هـ).

- ياقوت: (٦٢٩هـ/ ١٢٨٢م) شهاب الدين أبو عبد الله الحمدى

معجم البلدان (٥ أجزاء - بيروت).

- يوحنا: القس منسى

تاريخ الكنيسة القبطية (مكتبة المحبة - القاهرة - ١٩٨٣).

- يوساب: (القرن الثالث عشر الميلادي) الأنبا يوساب أسقف فوة

تاريخ الآباء البطاركة (أعده للنشر/ القس صموئيل السريانى/ نبيه كامل القاهرة).

-Lane- Poole. S: Catabogue of the Callection of Arabic Coins (London, 1897).

- Lavoix. H: Catalogue des Monnaies Musulmanes (Paris, 1891).